

littérature française contemporaine

في مصطلح الأدب الفرنسي المعاصر

د. عبد النبي اصطيف

ناقد وباحث وأستاذ جامعي من سورية - عضو اتحاد الكتاب العرب

يشير عنوان «الأدب الفرنسي المعاصر» جملة من التساؤلات المتصلة بمدلولاته من جهة، وبالواقع الفعلي الذي يشير إليه من جهة أخرى. فهل الأدب الفرنسي المعاصر، بالمعايير التي يقرّها مفهوم «الأدب القومي»، هو أدب فرنسي حقاً، بمعنى أنه أدب ينتجه الفرنسيون، المنتمون إلى الأمة الفرنسية، أو الشعب الفرنسي، وبلغتهم القومية التي هي اللغة الفرنسية؟
في الإجابة عن هذا السؤال المركّب يمكن القول: إن الأدب الفرنسي المعاصر أدب يتجاوز دائرة الأدب القومي.

أما أن منتجيه من الفرنسيين المنتمين بأصولهم العرقية أو الاجتماعية أو الثقافية إلى الشعب الفرنسي، فأمر بات موضع مساءلة شديدة، لأن من يُنتج هذا الأدب، يضم الفرنسيين وغير الفرنسيين من المهاجرين الذين وفدوا إلى فرنسا في القرن العشرين بشكل خاص بدواع مختلفة؛ ومن أبناء الشعوب والأمم الأخرى الذين انضوا تحت لواء الثقافة الفرنسية، أو النفوذ الفرنسي، أو الاستعمار الفرنسي في فترة ما من القرون الثلاثة الأخيرة، واتخذوا من الفرنسية أداة لأدبهم.

وأما أن ما ينتجه هؤلاء وأولئك باللغة الفرنسية، فإن هذه اللغة لم تعد لغة قومية، وأصبحت لغة عالمية *global language*، إن لم تصبح لغة عالمية *world language*، انسربت فيها روايد لغوية وثقافية وأدبية من مصادر متنوعة تنوعاً غنياً، تضم مختلف اللغات والآداب والثقافات التي يمتح منها منتج هذا الأدب من غير الفرنسيين أو من ذوي الأصول الفرنسية.

وعندما يأتي المرء إلى صفة «المعاصر» التي تلحق هذا الأدب بالعصر الراهن، فإنه يجد أن مضامين هذا الأدب، وموضوعاته، واهتماماته، وقضاياها، متصلة بعالم العولمة المعاصر - هذه العولمة التي لا تفرُّ بأية حدود سياسية أو لغوية أو ثقافية، ومن ثمَّ فإن صفة «المعاصر» التي تلحق بالأدب الفرنسي لا تكسبه أية خصوصية فرنسية.

ومعنى هذا أن علينا أن ننظر إلى البدائل الممكنة التي يمكن اقتراحها في هذا السياق، حتى تكون الصلة بين المفهوم: «مفهوم الأدب الفرنسي المعاصر» ومدلولاته صلة وثيقة وعضوية، وفعلية، وليست صلة افتراضية.

وأول بديل يمكن أن يعرض للمرء هو «آداب اللغة الفرنسية»، فهو يصف موضوعياً جميع الآداب المنتجة باللغة الفرنسية، بصرف النظر عن هوية منتجها: القومية، أو الإثنية، أو العرقية، أو حتى اللغوية، ومعنى هذا أنه يشمل الأدب الذي ينتجه الفرنسيون في فرنسا ذاتها؛ والأدب البلجيكي، والأدب السويسري، والأدب الكندي، الناطقة جميعها باللغة الفرنسية، فضلاً عن أدب جزر المارتينيك، وغوادولوب، وغوايانا الفرنسية، والري-يونيون، وهي مستعمرات فرنسية فضلت البقاء تحت الحكم الفرنسي، وآداب كل من موريشيوس ومادغشقر، والجزائر، وتونس، والمغرب، ولبنان، ومصر الناطقة كذلك بالفرنسية، وآداب جزر الهند الغربية، وهاييتي، وغيرها من جزر أمريكا الوسطى، فضلاً عن ولاية لويزيانا، التي اتخذت من الفرنسية أداة لكتابتها.

وعلى الرغم من أهمية حجم هذه الآداب، وأهمية ما أدته من دور في تطوير اللغة

الفرنسية والأدب الفرنسي بما حملته معها من آداب لغاتها الأم وثقافاتهما وتجاربها الخاصة بها، فإن الكثيرين من منتجي هذه الآداب يميلون إلى رفض هذه التسمية لأنها تأكيد للهيمنة الفرنسية الاستعمارية، وطمس لهوية هذه الآداب التي كانت في مجملها مناهضة لهذه الهيمنة، وعملت بشتى الوسائل على زعزعتها. ومعنى هذا علينا أن نفكر ببديل آخر يظفر بدائرة أوسع من التوافق والقبول.

ولذا يشرح بعضهم مصطلح «الأدب فرانكوفوني» بديلا عن المصطلح السابق، وهو مصطلح يشير عادة إلى الأدب المكتوب باللغة الفرنسية، وينتجه كُتّاب من غير الفرنسيين، في فرنسا التي هاجروا إليها واستوطنوها، أو في مختلف بقاع الأرض في جزر البحر الكاريبي، وفي إفريقيا، وفي الشرق الأوسط. غير أن هذا أن هذا المصطلح لا يشمل أدب الفرنسيين ممن ينتمون إلى الشعب الفرنسي في أصولهم الإثنية والاجتماعية والثقافية، ومن ثمّ فإنه يستبعدهم، مع أنهم، على الأقل في نظر أنفسهم، هم الأصل، فكيف يمكنهم إذن أن يقبلوا به، ليتحوّلوا إلى مجرد رافد من روافد هذا الأدب، بعد أن كانوا تياره الرئيسي.

والحقيقة أن ثمة اعتراضات أخرى، إلى جانب اعتراضات الفرنسيين أنفسهم على استبعاد هذا المصطلح لأدبهم، مع أن الفرنسية تجمع بين ما ينتجونه بها، وبين ما ينتجه الآخرون بها أيضاً، و مصدر هذه الاعتراضات الكُتّاب غير الفرنسيين ممن اتخذوا الفرنسية أداة لأدبهم، وبخاصة أدباء المستعمرات السابقة لفرنسا الإمبريالية، الذين يرون فيه استمراراً للهيمنة الفرنسية وإعادة إنتاج للنفوذ الفرنسي، بكل ما تحمله مقولة الهيمنة، وفكرة النفوذ من إحياءات تتصل بماض أسود للعلاقة بين هذه المستعمرات والدولة الاستعمارية، مثلما تتصل بالتركة الاستعمارية التي خلفتها الحقبة الاستعمارية وما تركته من ندبات في نفوس سكان هذه المستعمرات، ولاسيما أدباؤهم الذين يمثلون ضمائر تلك الشعوب والأمم التي خضعت للحكم الفرنسي.

وهناك، أخيراً، المصطلح الأحدث عهداً من بين هذه المصطلحات وهو «الأدب العالمي بالفرنسية»، أو الأدب المدوّن بالفرنسية، الذي يجمع ما بين أدب التيار الفرنسي الذي ينتجه الفرنسيون في فرنسا، وبين أدب الروافد التي ترفد هذا التيار من خارج فرنسا، وهو أدب غني متنوع، ينطوي على الكثير من ملامح الجدة والإثارة والأصالة والنكهات المتصلة بفسح إنتاجه في قارات أمريكا وإفريقية وآسيا، خاصة وأن منتجيها: إما أن يكونوا من المواطنين الفرنسيين الذي اكتسبوا الجنسية الفرنسية بالهجرة، وإما أن يكونوا من المثقفين ثقافة فرنسية عميقة نتيجة تأهيلهم التربوي والتعليمي، والمتمكنين

من ثمَّ من الفرنسية، إلى جانب أدباء فرنسا الأصليين الذين يرون في أدبهم استمراراً للأدب الفرنسي الذي نشأ وتطور بعيد عصر النهضة.
ومصطلح كهذا يبدو مصطلحاً ديمقراطياً يسوّي بين الفرنسيين نسباً، وبين نظرائهم من الفرنسيين ولاءً، ويجمع بينهم بصفة العالمية التي تسبق الهوية اللغوية لهذا الأدب، وهو ما يشير إليه عنوان كتاب صدر مؤخراً عن مطبعة جامعة نبراسكا يحمل عنوان: «من الفرانكفونية إلى الأدب العالمي بالفرنسية»، من تأليف تيريز ميغرين-جورج، وما سبق لمؤسسة عريقة أن رسخته هي مطبعة جامعة أكسفورد التي تحولت في سلسلة رفيق أكسفورد Oxford Companion من رفيق أكسفورد للأدب الفرنسي إلى رفيق أكسفورد الجديد للأدب [المنتج] بالفرنسية .

انظر كتاب:

,Patrick Corcoran

The Cambridge Introduction to Francophone Literature

; (Cambridge University Press, Cambridge, 2007)

ولاسيما الفصل الأول (ص ص 27-74)، الذي يغطي أعمال كل من مولود فرعون، وكاتب ياسين، وإدريس الشرايبي، وألبير ميمي، ورشيد بوجدر، وآسيا جبار، وطاهر بن جلون؛ وانظر من الفصل الثالث القسم الخاص بالشرق الأوسط الذي يغطي أعمال كل من أمين معلوف وألبير قصيري (ص ص 130-137).

انظر

,Therese Migraine-George

From Francophone to World Literature in French: Ethics, Poetics

and Politics

; (Nebraska University Press, Lincoln, 2013)

وكذلك كتاب:

,French Global: A New Approaches to Literary History

Edited by Christie McDonald and Susan Robin Suleiman

.(Columbia University Press, New York, 2011)

انظر:

,The New Oxford Companion to Literature in French

Edited by Peter France

.(Oxford University Press, Oxford, 1995)